

اساس الحضارة الإسلامية الحديثة

بقلم عبد العزيز أمين عبد المجيد

عضو هيئة دار العلوم بالجائزا

الحضارة المصرية الحديثة وهل تبنى على أساس فرعونى أو عربى :-

لكى نستطيع أن نعطي حكماً قاطعاً فى قضيتنا التى هى موضوع بحثنا اليوم ، يجب أن نفهم أولاً - كما يقول المنطقيون - مدلول العبارة ، ثم نحلل المقدمات وتتبعها حتى نصل إلى النتيجة الصحيحة .

وإذا فعلينا أن نعرف أولاً المقصود بالحضارة ، وما هى الحضارة المصرية الحديثة ، وما هو الأساس الفرعونى الذى يصح أن تبنى عليه هذه الحضارة ، وهل هناك حضارة فرعونية حية ، وما هو مقدار حيويتها ، وما هو المقصود بالحضارة العربية التى نريد أن نجعلها أساساً لحضارتنا الحديثة ، وهل لنا حق الاختيار والتقرير ، أو هذا شئ فرضه علينا التاريخ والاجتماع ، وهل نستطيع أن نبنى على غير هذين الأساسين إن أردنا ؟؟

أخشى أن تشعر روح هذه الأسئلة بشئ من الجراءة فى البحث ، أو التطفرف فى التفكير ، ولكنها أسئلة ضرورية لمعالجة موضوع كهذا .

بكل منا يعرف المعنى العام لكلمة الحضارة ، ولكنى لست واثقاً من أن كلا منا يستطيع أن يذكر بالضبط مدلول الحضارة وحدها ، والحضارة كغيرها من المعنويات شئ يمكن إدراكه ، ولا يسهل حذوه . ولكى نلنص صفة هذه الدعوى ندع كلا منكم الآن يسائل نفسه السؤال الآتى :

ما هو بالضبط المقصود بالحضارة ؟

لا أظن أن كثيراً من الأجوبة سيكون مقنعاً ، أو جامعاً مانعاً ، ولكن يمكن أن يقال إن كلا منا قانع بما يعرفه عن مدلول كلمة الحضارة ..

ولم كل هذا؟ أليست الحضارة ضد الحمجية؟ ولكن ماهي الحمجية؟ أو بعبارة أخرى من هو الرجل المتحضر؟ وماهي مميزاته؟ وكيف نفرق بينه وبين الرجل الحمجي؟ أم بظهوره ومنظره؟ أم بطريقة تفكيره وتصرفه، ونظام حياته، ودرجة معرفته؟

وهنا يصح أن أشير إلى مناقشة جرت بيني وبين أحد الزملاء لأول مرة حول هذا الموضوع^(١). ذكر لي أنه يشرح كلمة الحضارة بما تدل عليه كلمة Culture الإنجليزية، وأن مدلول هذه الكلمة الأخيرة يشمل ثلاثة عوامل جوهرية: هي العامل اللغوي، والعامل الديني، والعامل الخلقى بمعنى أوسع، وأثر هذه العوامل في حياة النوع الانساني.

وبعد أن أخذت المناقشة مجراها العلمي واللغوي اتفقنا على اقتراح أبديته له، وهو أن تكون الكلمة العربية المقابلة لكلمة (Culture) هي كلمة (ثقافة).

وأن كلمة الحضارة أو المدنية هي ترجمة الكلمة الإنجليزية Ci-lis ation

وعلى هذا الأساس قابلني هو بعد أن أعلن موضوع محاضرتي، وذكر بأن الأولى بناء على هذه المناقشة الماضية أن يكون عنوان المحاضرة (الحضارة المصرية الحديثة وهل تبني على ثقافة فرعونية أو عربية؟) غير أنني رغبت أن أتناول الموضوع كما ذكر عنوانه في مطلع المحاضرة؛ ليتسنى لي أن أعرض لمدلولي الكلمتين: حضارة وثقافة، خلال حديثي.

وفي اعتقادي أن أحداً لم يحاول في اللغة العربية التفرقة بين الثقافة والحضارة، فالآداب والمؤرخون يقولون: الثقافة الإسلامية ويعنون الحضارة الإسلامية أو بالعكس. وفي اللغة الإنجليزية لا يوجد فرق بين الثقافة والحضارة، وإنما يوجد هذا الفرق في اللغة الألمانية. فالثقافة في الألمانية تشمل الآداب والفلسفة بما فيهما من علوم الاجتماع والأخلاق وهي كلمة Kultur. وأما الحضارة فتعلق بالماديات كالطب والموسيقى، ونظام الحكم العملي، وترقية طرق المواصلات وتنظيم الري، وفن العمارة، ونظام الجندية، وما إلى ذلك، وهي كلمة Civilisation.

(١) هو الأستاذ محمد خلف الله أحمد

ويظهر لى أن اللغة العربية تحتل هذه التفرقة ، فإتينا نقول : رجل مثقف ونعنى بذلك أنه قد نال قسطاً وافراً من الدراسة الأدبية ، وعلى صلة بالفلسفة وعلوم الاجتماع والأخلاق ، وإن كان لا يعرف شيئاً عن تركيب الماء ، ولا خواص المغناطيسية ، ولا حساب المثلثات .

كما إتنا نقول ، أمة متحضرة ، إذا كان نظام الحكم فيها ، ومستوى الحياة الاجتماعية والمعاشية قد وصلا إلى درجة تكفل للفرد الراحة ، والأمن والسعادة النسبية .

وقد يكون من السهل أن نصف الرجل بأنه متحضر بمجرد رؤيته ، ومن غير اختبار لمعارفه العلمية أو الاجتماعية ، ولكننا حينما نصف رجلاً بأنه مثقف ، ننفي هذا الوصف على معرفتنا لصفاته العقلية والاجتماعية والخلقية . وكل رجل مثقف متحضر ، وليس بالطبع كل متحضر مثقفاً ، وحضارة الأمة ليست نتيجة لثقافة كل فرد من أفرادها ، وإنما هي أشبه بذلك الضوء الذى تراه قد ملا فراغ الحجر ، ولكن له مصدراً أو مصادر معينة . هذه المصادر التى تنبعث منها الحضارة كما ينبعث الضوء من مصادره ، هى المصادر المثقفة .

وإذا فإمكننا أن نقول : إن الحضارة وليدة الثقافة ، وإن الحضارة يظهر أثرها فى الماديات ، كما أن الثقافة تتسلط على المعنويات . ولا يمكن حدوث أى تغيير مادى من غير أن يسبقه تغيير معنوى . بمعنى أن كل تغيير فى مظهر الحضارة لا بد أن يكون قد سبقه تغيير فى مظاهر الثقافة ، التى هى فى الواقع نصيب الخواص ، وليست نصيب كل فرد .

وقد توجد الثقافة ولكن فى دور الكمون ، Latent ، وفيها القدرة على الظهور ، وإبداء آثارها فى المجتمع حينما تتاح الفرصة المناسبة ، وتتهيا الظروف لإبراز هذه الروح الثقافية فى صورة حضارة فى المجتمع .

فقد يكون فى شعب من الشعوب أفراد مثقفون ، لهم نظريات اجتماعية ، وآراء فلسفية وأدبية ، ولكن الشعب الذى يعيشون فيه ، ليس مستعداً لتلقى هذه الرسالة الثقافية وتحويلها إلى حضارة ، وإذا تظل هذه الثقافة سجيئة فى نفس

صاحبها حتى يموت فتموت معه ، أو ربما أودعها بطون الكتب ، فاكتملت أهل الأجيال المقبلة ، واستغلوها في ميدان الحضارة . ومثل هذا مثل التيار الكهربائي في السلك المنقطع على الصباح ؛ هذا التيار الكهربائي لا يمكن أن يظهر أثره في الإضاءة ، إلا إذا كان الصباح المتصل به في حالة سلامة صالحة لتحويل هذه القوة الكهربائية إلى ضوء ساطع .

ومن هنا ينشأ الخطر من تضارب الثقافات في أمة واحدة ، لم تصل بعد إلى حد النضوج الفكري ، فتقرر أى الثقافات تتقبل . وإذا كان هذا التضارب متعادلا وقف تيار الحضارة في هذه الأمة ، وقاسى الشعب نتيجة هذا التضارب ، من غير نتيجة مباشرة ؛ كالمريض في دور النقى . فهو بين قوتين : قوة الميكروب وقوة المناعة الطبيعية . وأيهما ينتصر كان له الظفر .

وتعارض الثقافات وعدم تجانسها في أى أمة يستولى على دور من التاريخ ، يسمى دور الانتقال ، تعاني الأمم في خلاله ما تعاني ، ويتوقف طول هذا الدور وقصره على تعادل قوتي الثقافتين ، أو قوة إحداهما وضعف الأخرى .

هذه المقدمة ضرورية لفهم الموضوع الذى بين أيدينا ، لأنها توضح لنا أن انتصار ثقافة ضد أخرى معناه إحياء حضارة ، وإضعاف أخرى ، أو تغلب عنصر حضارى على عنصر آخر .

نعود إذا إلى القضية فترى أمامنا أساسين : الأساس العربى ، والأساس الفرعونى . ولكن دعنا نختبر - أولا - كلام هذين الأساسين على حدة ؛ ولكى نستطيع أن نصل إلى نتيجة واضحة يصح أن نجيب عن الأسئلة الآتية :

ما المقصود بالحضارة العربية ؟ أهى عربية جاهلية ، أم عربية إسلامية ؟ وهل ما نسميه حضارة عربية هو ما أنتجت قرائح العرب المسلمين ، أو المسلمين غير العرب ، أو كليهما جميعا ؟

من الضرورى أن نعرف هذا أولا وقبل كل شئ . لأن أخذ الأشياء على ظواهرها قد يقود إلى نتائج غير سليمة .

لم يكن للعرب قبل الإسلام حضارة الفرس ، ولا مدينة الرومان ، ولا

فلسفة اليونان . ولم تكن عوامل الثقافة بينهم قد نمت - اللهم إلا الشعر الذي أنتجوا فيه ما لم تنتجه أى أمة من قبل من حيث الكم - وما كان عندهم من علوم كعلم التجوم أو التنجيم هو مستعار من الكلدانيين أو البابليين ، ولم يكن جيتند علما ثابت القواعد ، وإنما هو نتيجة التجربة والتخمين ، وكانت عندهم علوم أخرى هى إنتاج البادية كالكهانة والعرافة والقيافة ، وليس صحيحا أن تسمى هذه علوما ، وقد عرفوا شيئا من الطب نقلوه عن الكلدانيين ، وكانت عندهم طريقتان للتطبيب : طريقة الكهان والعرافين ، وطريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر ، أو بذبح الذبائح فى الكعبة ، والدعاء فيها أو بالتعزيم . أما المعالجة العقارية ، فكانت بتعاطى بعض المواد كالعسل ، أو بالجراحة كالخجامة والكي ، أو بتر بعض الأعضاء .

وكان علم الأنساب موضع عنايتهم ؛ لحرصهم على الالتئام إلى قبائلهم ، والمحافظة على شرف القبيلة ، لأن نظام القبيلة كان أساس النظام الاجتماعى عندهم . وإلى أن جاء الإسلام لم يكن العرب مصدرا للحضارة ، كما كان اليونان والرومان والفرس والهنود ، ولم تكن لهم فلسفة اجتماعية راقية . ولم تهمد لهم عيشتهم الصحراوية أن ينتجوا فى غير ميدان الشعر .

فلما جاء الإسلام وثبتت قواعده فى أيام الخلفاء استتبع التوسع فى نظام الحكم ، واتساع النفوذ الإسلامى وجود علوم أخرى ، كعلم الحديث ، والقراءات ، والتفسير والنحو . غير أننا نلاحظ أن كثيرا ممن عنوا بهذه العلوم ، كانوا من غير العرب : فوهب بن منبه من أقدم رواة الحديث ، وأصحاب التفسير وهو فارسى الأصل . ونافع القارىء ديلى . ومن أكبر الفقهاء وأقدمهم الحسن بن الحسن ، ومحمد بن سيرين . وعطاء بن رباح ، ومجاهد وسعيد بن جبير ، وسليمان بن يسار ، وكلمهم من الموالى أى غير العرب .

وكذلك الحال فى علوم اللغة ، فإننا نجد أن معظم الذين اشتغلوا بها كانوا من العجم : كحماد الراوية وهو ديلى ، والخليل وسيبويه والأخفش والعباس والزجاج وغيرهم من الفرس .

أما العلوم الدخيلة: وهى الفلسفة والمنطق والرياضيات، فالمشتغلون بها للعرب هم من غير العرب وغير المسلمين - هذا طبعاً فى بدء الإسلام - لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهنود إلى العربية اتخذوا عارفى هذه الألسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها، وأكثرهم من غير المسلمين. وكلنا يعرف عناية المنصور بترجمة كتب النجوم؛ بوساطة نوبخت المنجم الفارسى، وقد كان مجوسياً وأسلم على يديه. والمنجم على بن عيسى الأسطرلابى. كما أمر بترجمة بعض كتب الطب من اليونانية والسريانية على يد جورجيس بن بختيشوع السريانى، وحذا المهدي والرشد حذو المنصور، فأصبحت بغداد مركزاً للعلوم الدخيلة التى يقوم بدراستها الأطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود المسلمين وغير المسلمين، وشجع المأمون الفلسفة والمنطق، وهما علمان يونانيان، وأمر المأمون أيضاً بنقل فلسفة أرسطو، وفلسفة أفلاطون الجديدة. وكان السريان فى كل هذه الأدوار هم المترجمين والمشتغلين بالعلم والفلسفة والطب، كما شاركتهم فى هذا الفرس والهنود ثم العرب أخيراً. وإليك أشهر نقلة العلم فى العصر العباسى:

- (١) آل بختيشوع وهم من السريان النساطرة. وقد ولى الرشيد ابن بختيشوع رئاسة الأطباء، وخلفه فيها ابنه جبريل.
- (٢) آل حنين وهم من نصارى الحيرة.
- (٣) حبش بن الحسن الدمشقى، وهو ابن أخت حنين بن اسحاق.
- (٤) قسطا بن لوقا البعلبكى، وهو من نصارى الشام، وكان طبيباً حاذقاً.
- (٥) آل ماسرجويه وهم يهوديو المذهب.
- (٦) يحيى بن البطريق.
- (٧) ابن المقفع.
- (٨) آل نوبخت.

وغير هؤلاء كثيرون عن خدموا فى الدولة العباسية، وقد كانوا قادة الثقافة

في أول الفتح الإسلامي، ومن مترجماتهم: كتاب السياسة الذي نقله حنين بن إسحاق، وكتاب المناسبات ونقله يحيى بن عدى، وكتاب أصول الهندسة وترجمه كسطابن لوقا، وكتاب البرهان والجدل في المنطق، ونقله من اليونانية إسحاق بن حنين، وكتاب عهد أبقراط، وكتاب طبيعة الإنسان، وكتاب إقليدس في الهندسة، وكتاب أرشميدس، وكتاب فلسفة أفلاطون، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة. كما ترجم الفرس كثير من المؤلفات القيمة، ككتاب كليلة ودمنة، وكتاب مزدك، والتاج في سيرة أنوشروان، والأدب الكبير، والأدب الصغير. وليس المقام هنا مقام حصر الكتب التي ترجمت إلى العربية، وإنما نريد أن نقرر حقيقة، وهي أن الذين قاموا بالحركة العلمية والثقافية في بدء الفتح الإسلامي كانوا من غير العرب، ومن غير المسلمين أيضاً، وأنهم نقلوا إلى العربية ما لم يعرفه العرب من قبل.

على أن هذا ليس من الأمر في شيء، فكما قلت في مطلع المحاضرة: إن للثقافة قوة معنوية قد تكون كامنة في نفوس أصحابها تترقب الفرصة المتاحة، والظروف المناسبة؛ لتظهر أثرها، وتعبّر عن وجودها.

والعرب قاموا بالدعوة للإسلام، وفتحوا الفتوح، وهم أهل بادية أميون، فانصرف همهم في بدء الدعوة إلى نشر الدين، وإنشاء دولتهم بما لا يحتاج إلى علم، وإنما كانت حاجتهم من العلم إلى القرآن الكريم، يدعون الناس به إلى الإسلام. ولم يمس على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة، حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وإفريقية وغيرها. والمسلمون العرب يومئذ هم الجند الفاتح، وكانوا قليلين بالنظر إلى ذلك الملك الواسع، فضلاً عن قتل منهم في الحروب والفتن، فأصبح همهم الاشتغال بالسياسة في الجند والحكومة، ونظراً لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائنهم إلى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال - وهي آدابهم في الجاهلية - ولما لم تكن لهم خبرة باللغات، وكانوا شغوفين بمعرفة علوم غيرهم من الأمم وآدابها، لم تكن هناك وسيلة غير تشجيع أولئك المترجمين، وتقريرهم إليهم بالمناصب والعطايا، حتى يؤدوا رسالتهم بأمانة وإخلاص، وقد وجدت هذه العلوم المترجمة في الثقافة العربية موطناً خصيباً فتمت وأينعت ثمارها.

ورحبت عناصر الثقافة الثلاثة : اللغة والدين والخلق كما ذكرناه بهذا النوع الجديد من الحضارات المختلفة ؛ فحضمت الثقافة العربية هذه الحضارات الغريبة ، وحولتها إلى الصورة التي تتفق وطبيعة العصر ، وروح الأمة الناهضة ، وصبغتها بصبغة مميزة لها هي الصبغة العربية .

ولا نريد أن نقول إن العرب استطاعوا أن ينقلوا جميع العلوم إلى لغتهم ، وإنما جاء العرب والعلوم مزهرة لدى اليونان والفرس والكلدان والهنود وغيرهم ، بمن دانوا لهم ، وأظلمهم راية الإسلام ، فأخذ الغرب من علوم هؤلاء جميعا ؛ ولذلك كان من فضل الإسلام على التمدن أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية ، ونقلها إلى العربية وزاد فيها ، حتى نضج العلم على اختلاف فروعه ، وأثمر ، ونبع العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة في ظل الإسلام وظل العربية ، وهذا ما نقصده حينما نقول « الحضارة العربية » .

أما الحضارة الفرعونية فقد يكون من البعث أن نحاول هنا أن نعطي وصفا كافيا ، لما وصلت إليه من ارتقاء وسمو ، بما تنقف أمامه الحضارات الحديثة باهتة متسائلة : ما هو السر السحري الذي استطاع به الفراعنة أن ينتجوا في فجر التاريخ هذه العظمة في الفن ؟ وكيف اهتموا إلى هذا السر ، وأى خبرة كانت عندهم بقوانين العلم ، وقواعد الفن نفسها التاريخ فلم تصل إلينا ؟

ولكى أعالج موضوع الحضارة الفرعونية على النحو الذي اتبعته في معالجة موضوع الحضارة العربية ، أرى أن أبدأ بعناصر الثقافة الثلاثة : اللغة والدين والخلق . وقد يكون غير ضروري هنا أن أتعرض للصورة التي كانت عليها لغتهم ، وكيف كانوا يتكلمون أو يكتبون ، أو لقواعد لغتهم وتراكيبها ، ولأن هذا ليس في طوقى . وإنما يهمننا أن نعرف أن لغة الفراعنة قد أصبحت لغة تاريخية ، بين اللغات ، ندرس لكشف مخلفات أصحابها العلمية والأدبية والعمرانية فقط . ولا يعرف المؤرخون الحديثون كيف كانت تنطق ، ولم يصل إلينا أى سجل تاريخي ، يرشدنا إلى مخارج الحروف ، وصنع العبارات عند قدماء المصريين . وإذا فسواء أرضينا ، أم غضبنا لا مجال لأحياء لغة الفراعنة ؛ لكى تكون لغة

أدب ومحادثة ، ولكي تكون عنصرا من العناصر الثلاثة التي تبنى عليها الحضارة المصرية الحديثة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة الميرغلفية كانت لغة أدب جم ، وفلسفة ، وعلم واسع ، تناولت الفلسفة السماوية ، والفلسفة الدنيوية ، ووصفت العاطفة والخيال والشئون اليومية العادية ، وفي هذا الموضوع يقول أحد المؤرخين المعاصرين من الفرنجة :

« لقد اتضح أخيرا فقط ، أن قدماء المصريين قد حفظوا لنا لغة ذات أدب ديني وديني معا ، تلك اللغة التي سمت في عبارتها وأسلوبها عما عهدناه في كتاب الموتى ، لغة جديدة بأن تذكر بجوار اللغات العالمية الناضجة ، كالعربية والهندية . وقد حوت الميرغلفية كثيرا من فروع الآداب ، كالأساطير العجيبة ، والرسالات العلمية ، والمناظرات الخلقية ، والمناجيات اللاهوتية ، وغير ذلك من الموضوعات الفكهة .. »

ولا يتسع المجال هنا للإطناب في وصف الأدب الفرعوني ، ولا للتعرض لنوعى الشعر والنثر ، وإنما اخترت القطعة الآتية ؛ لترينا نوع الخيال الشعري لدى قدماء المصريين وسموه : —

« ها هي ذى محبوبتي بعيدة غنى ، بيني وبينها نهر ، والتمساح هناك منبسط على رمال الشط ، فعند ما أعبّر النهر إليها أجدني أمشي على الماء ، فيختلط الدم الناضح من قلبي بهذا الماء ، ويخيل إلى أن الماء قد جمد ، وأصبح في صلابة الأرض . إن هناك محبوبتي ، وهذا ما يلهمني الشجاعة لعبور النهر ! لقد سحرت الماء أراها تدنو وأدنو أنا منها أيضا ، وذراعى مبسوطتان لمعانقتها ، وقلبي يعود إلى موضعه حينما أحضن محبوبتي .. »

أما العنصر الثاني ، وأعني العنصر الديني فيظهر أن الديانات قد وصلت أسنى درجات الارتقاء في العصر الحاضر ، ولذا فإننا نجد ديانات قدماء المصريين — بالرغم من أن تعاليمها كانت سامية — لا تتناسب مع التفكير البشري الحاضر . ولا يحاول العقل الإنساني إحياءها ، وإذا ، فقد بحا التاريخ هذا العنصر الثقافي ، واستعاض عنه الديانات السماوية المعروفة الآن ، والتي يكون كل منها عنصراً جوهرياً في الحضارات الحديثة .

أما العنصر الثالث وهو العنصر الخلقى، فقد كان ولا يزال تابعا للعامل الدينى، ونتيجة للتقاليد وللعرف الزمانى والمكانى، فالأخلاق هى فى الواقع وليدة الديانات والتقاليد، ولذلك نرى عادات قدماء المصريين مرتبطة بتعاليمهم الدينية؛ فمن المعروف مثلا، أن قدماء المصريين، كانوا مغرمين بالرقص والشرب، والغناء والموسيقى. وكانوا يعتقدون فى الخرافات، والسحر، وكان الرق عندهم مباحا، ولم تكن الرعية فى نظر الملوك إلا عبيدا وخداما، وقد أباحوا أيضا تعدد الزوجات من غير قيد، كما يزعم بعض المؤرخين أنهم أباحوا زواج الأخوات. وعلى أية حال فالمقصود بالعنصر الخلقى ما يسمى بالإنجليزية Moral outlook

ويدخل ضمن هذا أيضاً The moral and ethical stand and التاريخ والاجتماع يؤيدان أن هذا العنصر الثالث من عناصر الثقافة، لم يصل إلينا من قدماء المصريين سالما خاليا من كل دخيل؛ لاتنا نعرف أن زوال الحضارة الفرعونية، وزوال دولة الفراعنة، وتتابع الحكم الأجنبى على مصر، وتقبل الشعب لصور مختلفة من الحضارات الغريبة - كل هذا قضى على العنصر الثالث من عناصر الثقافة الفرعونية.

غير أن الحضارة المادية - حضارة الفراعنة - وإن كانت قد دفنت؛ وظلت فى طوايا النسيان عشرات القرون ثم اكتشفت، فإن كشفها لم يساعدنا على إحياء الثقافة، لأن ثقافة أخرى أقوى وأنسب قد توطنت، وتوطدت أركانها فى الشعب.

وإذا، فلم يبق أمامنا إلا حضارة قدماء المصريين - لثقافتهم - للتقليد والاقباس؛ أعنى الحضارة المادية لا الثقافة المعنوية؛ لأن الثقافة قد انتهت، وأصبحت تاريخية كما شرحت.

أما الحضارة فهى ماثلة فى فن العمارة والبناء، وفى فن النحت والتصوير، وفى علم الكيمياء والتحنيط، وفى صناعة المعادن والذهب والحلى. فى كل هذه المخلفات التى يجوز لأى أمة - كما يجوز لمصر - أن تقلدها متى وجدت وسيلة إلى ذلك. نحيل إلى - أيها القارئ الكريم - أنا قد وصلنا إلى النتيجة، فأمامنا الآن

الحضارة المصرية الحديثة . وهي ولا شك تعتمد على ثقافة ، فإذا حللنا هذه الثقافة إلى عناصرها الثلاثة : اللغة والدين والأخلاق . وجدنا العنصر الأول عربياً ، والثاني إسلامياً ، والثالث إسلامياً عربياً ، فلم يبق إذاً أمامنا سبيل إلى الاختيار . غير أن سائلاً يقول : ولم البقاء على هذه الحال ؟ والثورات الفكرية والدينية والسياسية قديرة على تغيير هذه العناصر الثقافية ، واتخاذ عناصر أخرى لثقافة جديدة ، تكون نواة لحضارة جديدة . ولكن مهلاً أيها السائل . احذر أن تخلط بين الحضارة والثقافة . فمن الممكن والجائز أن تختار من الحضارات ماتراه أصلح لروح العصر ، وطلبات الزمن ، على أن تصبغ هذه الحضارة بصبغة ثقافتك ، وعلى أن تنفث فيها من روح لنتك ودينك وخلقتك ؛ لأن ضياع ثقافة أمة هو ضياع الأمة وحياتها وكيانها ، ولأن الأمة التي تتهاون في عنصر من عناصر ثقافتها تفقد ركناً من أركان حياتها وحيويتها ، وعاملاً من عوامل قوميتها ، وليس معنى هذا أنها تتقهقر مادياً ؛ وإنما تهوى أدياً ومعنوياً .

إن الثقافة المشتركة هي أم العاطفة (Sentiment) فهي التي تربطني بالعراقي والشامي والحجازي والمغربي ، وهي التي تجعلني أشعر بالأنس حينما أهبط العراق أو فلسطين أو تونس . كما أنها تشعرني بالوحدة حينما أهبط لأول مرة مملكة أوروبية ، أو أي مملكة أخرى لا تربطنا بها رابطة الثقافة .

إن هذه العوامل الثقافية الثلاثة التي أشرت إليها هي التي تغذي العاطفة المتبادلة بين ممالك الشرق الأدنى ، وإضعاف أي عامل من هذه العوامل يتبعه إضعاف العاطفة المتبادلة ، والروابط المشتركة .

يقولون : إن تركيا قد كسبت وتقدمت حضارتها المادية ، منذ ثورتها الوطنية ، ومنذ أن حاولت القضاء على بعض عناصر الثقافة المشتركة بينها وبين الممالك العربية — أعني تغيير الحروف العربية إلى حروف لاتينية ، واستبدال نظام الاجتماع بنظام آخر — ولكنني أعتقد أن تركيا قد خسرت خسارة كبرى هي عطف هذه الممالك العربية وحدها عليها ، ومعاونتها إياها في أوقات الشدة ، وإن تركيا لتشعر بهذه الوحدة ، وبأنها قد فقدت صديقاتها التي لا تجد الآن عنهن بديلاً .

إن الشعوب الأوروبية - أيها القارئ - لتلبس بقوة عناصر الثقافة - كلها أو بعضها - بكل وسيلة، فتعمل على نشر لغتها وآدابها، ومذاهبها الدينية والفكرية؛ لتضمن بذلك أنصاراً وأصدقاء، ولتجذب بسلامة كياناتها: فألمانيا تعلن حقها الطبيعي في تكوين الإمبراطورية الجرمانية على أساس واحد. هو أساس الثقافة المشتركة. وإيرلندا تحاول التخلص من الحكم البريطاني، لأن حضارة إيرلندا غير حضارة إنجلترا، بل لأن الثقافتين مختلفتان فلا يمكن تجانسهما، وإذا فلا يمكن تعاون الأمتين. إن مركز مصر لجدير أن يستغل؛ لأنها تعتبر في طليعة شعوب الشرق الأدنى، ونظرة الممالك العربية إليها نظرة حب وعطف واحترام؛ فإن هي أرادت أن تبقى على هذا الحب والعطف والاحترام فلتبقى إذاً على الثقافة العربية، التي تربطها بهذه الشعوب، ولتجعل الثقافة العربية أساساً لحضارتها الحديثة.

عبد العزيز أمين عبد المجيد

